من أجل إستراتيجية وطنية لرصد مخطوطات الزوايا في مراكز حفظ رسمية للمستوى التاريخي: محفوظات زاويا الجنوب الجزائري نموذجا

إعداد:

أ.د. آجقو علي
قسم التاريخ
جامعة محمد خيضر –بسكرة–

أ. براركة شوقي
قسم علم المكتبات
جامعة محمد خيضر –بسكرة–

مقدمة:

إن التراث الحضاري لأي أمة من الأمم في هذا العالم يعد الأساس الذي تبني عليه مكانتها، وتحدد به هويتها ومسيرتها، كما يتعرف من خلاله على مدى عراقتها وتأصلها في التاريخ، ونوعية إسهامات رجالها في حركته، وقوة تأثيرها فيه وتأثرها به. فهي بهذا إما أن تكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإما أن تكون كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار. إن تراثنا الذي أورثنا عزا، ومجدا، وحضارة تزدهي عجبا بنوابغ من العقول، عجز الزمان أن ينجب أمثالها، وإبداعات أعيت الحذاق أن يدركوا نظيرا لها، فهو اليوم حبيس سجنه يشكو نكران أهله، وعقوق أبنائه، وجهل سجانه. ولئن تأثر التراث بوجه عام بهذا الصنيع، فإن التراث المخطوط كان أكثر تأثراً! لأنه ذاكرة الأمة، ودليل هويتها، وعصارة فكرها، وخلاصة تجاربها، ومجموع أعمالها وإبداعاتها.

ومن هنا جاء الدور الحقيقي لتسليط الضوء على هذا الإرث الحضاري الجليل (المخطوط)، إذ أن مخطوطاتنا في الوقت الحاضر في الدول العربية والإسلامية عامة وفي الجزائر خاصة، تحتاج إلى عناية أكثر وتوجه أوفر، وإذا بقيت على ما هي عليه فستكون عرضة إلى مزيد من التآكل والتلف، بينما نجد مخطوطاتنا العربية في الدول الأوربية تلقى كل عناية ورعاية وتكريم واهتمام.

... وكما نعلم ذلك, فإننا نعلم أيضا أن الوثائق بمعناها العام تشكل ذاكرة الشعوب و الأمم يمكنها أن تحافظ على خصوصياتها الثقافية و رموزها الروحية و الحضارية, و تعمل على تواصل الأجيال ببعضها البعض بدءا بالمنطلقات التاريخية التي تحكمها التجارب الإنسانية كخلفية وواجهة في آن واحد, و المجموعات الوثائقية تعد منابع و روافد ثقافية و علمية متجددة و متواصلة تساعد المجتمع على التنمية و الارتقاء و التطور, و تعد مؤشرا على تطور المجتمع في مختلف المجالات, و بواسطتها يمكن قياس درجة التقدم و التطور التي بلغها المجتمع في مختلف القطاعات و المجالات الإنسانية و على شتى الأصعدة.

و لهذا عملت و لاتزال الأمم الحية على الحفاظ على مخزونها الوثائقي في إحداث المراكز و المعاهد و المؤسسات المتخصصة ذات التقانة العالية و الإمكانات الوفيرة. خصوصا عندما نتذكر أن الثقافة التاريخية في عصر المعلوماتية أصبحت صناعة قائمة بذاتها[1].

لهذا و غيره, صارت البنية الأساسية التي تحكم المجتمعات كافة تلك المخرجات التي تتمثل أساسا في النتاج التاريخي و الاجتماعي و الاقتصادي..., ذلك أنه و من غير المعقول إحداث تنمية اجتماعية شاملة من دون ضبط للخطوات, و تحديد للغايات بصورة علمية محكمة, و هنا نلمس حقا دور صناعة علمية تدعى بالتوثيق. ويعد التوثيق عمل حضاري يحافظ على تراث الشعوب ويمد الباحثين بخلاصة ما سبقهم من علوم, ومراكز التوثيق بنوك زاخرة بالعلم والمعرفة وحلقة وصل بين القديم والحديث ومن خلالها يبدأ الإنسان من حيث انتهى الآخرون؛ خاصة و أن الحضارة العربية و الإسلامية قد حضيت بميراث علمي وثقافي كبير, قلما حضيت به أمة من الأمم عبر التاريخ ولا يتمثل ذلك في كثرته وحجمه فحسب بل في محتوياته وتنوع مواضيعه الأدبية و التاريخية و العسكرية و الاقتصادية والعلمية و غيرها, والتي كانت مصدر هوية للحضارة العربية و محط اهتمام لدى الحضارات الغربية اللاحقة.

وعطفا على ما سبق, تكون الوثيقة المخطوطة المحفوظة في المتاحف أو المكتبات أو على مستوى الخزائن الأهلية للأفراد و العائلات, كمصادر علمية و تاريخية جد موثقة و أكيدة, يتم من خلالها فهم مختلف النواحي الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و غيرها.

ونحن من خلال هذه الورقة سنحاول تسليط الضوء على المخطوطات كمعلم حضاري عن الصحراء الجزائرية و تراثها و كدليل حقيقي على المكانة التي كان عليها إنسان الصحراء, من خلال بيانها و المراد منها مع الحديث عن أهم مراكزها بالصحراء الجزائرية ضمن مداخلة بعنوان:" **من أجل إستراتيجية وطنية لرصد مخطوطات الزوايا في مراكز حفظ رسمية للمستوى التاريخي:محفوظات زاويا الجنوب الجزائري نموذجا**", محاولين الإجابة على التساؤلات التالية:

-ما هي القيمة العلمية للمخطوطات؟
-ما هو واقع المخطوطات بالجنوب الجزائري؟
-ما هي أهم مراكز حفظ المخطوطات بالجنوب الجزائري ؟
-ما هي أهمية مراكز حفظ المخطوطات تاريخيا؟ و هل هناك مراكز تعنى بهذا الشأن؟

1- بودوشة أحمد, **التشريعات و التكنولوجيا و دورها في دعم و تطوير الأرشيف الوطني**, مجلة المكتبات و المعلومات, 2003, مج2, ع3,ص.95-96.

وأثناء سعينا لمحاولة الإحاطة بالإجابة عن هذا التساؤلات قمنا بوضع عدة عناصر بداية بمحاولة ضبط لبعض المصطلحات والمفاهيم كالتراث المخطوط و المراد منه من جهة اللغة و الاصطلاح وكذا أهم المراكز التي حوت المخطوطات في مكتباتها و خزائنها في الجنوب الجزائري.

- **أهداف الدراسة:**

جاءت هذه الدراسة في هذه الصورة من أجل الخروج بنتائج واقعية انطلاقا من الأهداف الآتية:

- معرفة المخطوطات و قيمتها العلمية الكبيرة كإرث تاريخي و حضاري للصحراء الجزائرية.
- التعريف بأهم مراكز المخطوطات في الجنوب الجزائري في العديد من ولايات الوطن.
- الوقوف على واقع المخطوطات و العوامل التي ساهمت في التأثير عليها.
- التعرف على تجربة المركز الوطني للمخطوطات و جهوده في رصد و جمع المخطوطات.

1. مفهوم التراث المخطوط:

لقد أجمعت كتب اللغة و معاجمها على أن كلمة (التراث) مأخوذة من الفعل (ورث) و التاء فيه مبدلة من الواو و قد جاء في لسان العرب لابن منظور الإفريقي عن ابن الأعرابي أن الكلمة مشتقة من الفعل (ورث) و هي تفيد المعنى الذي تفيده كلمات أخرى ،وهي (الورث و الوريث و الوراث والإرث والأرث ...[2] كما أجمع الدارسون على أن المواد بالتراث كل ما خلفه الرجل لورثته ،و قد شاعت كلمة (التراث) دون غيرها لكثرة الاستعمال .

أما التراث كقضية فكرية فقد نظر إليها المفكرون من زوايا عدة و ذلك كثرت تعريفاتها، و دار نقاش كبير بين الباحثين بشأنه، إذ يفسر عند الكثيرين وفق المرجعية الفكرية و الأيديولوجية، و لما كان هذا الأمر لا يعنينا فيما نحن بصدده ، فإني أستأنس برأي قدمه الدكتور أكرم ضياء العمري،و ذلك لشمولية هذا الرأي يقول:"هو ما ورثناه عن آبائنا من عقيدة و ثقافة و قيم و أداء و فنون و صناعات و سائر المنجزات الأخرى المعنوية و المادية بل إنه يشتمل على الوحي الإلهي (القراءات و السنة) الذي ورثنا عن أسلافنا... "[3] و هذا هو المفهوم العام للتراث للفكر الإسلامي،لكن ماذا يعني هذا المصطلح في حقل المخطوطات ؟و ما دور الخطير الذي يؤديه التراث المخطوط في نقل العلم و المعرفة ؟ و كيف كان حاله بالأمس...[4] ، إن التراث في مجال المخطوطات يراد به:(كل يصل إلينا مكتوبا في أي علم من العلوم،أو فن من الفنون، أو هو كل ما خلقه

2- الإفريقي، ابن منظور: **لسان العرب**، ترتيب يوسف خياط ، دار لسان العرب،بيروت 1988، 907/6 (مادة:ورث)

3- العمري أكرم ضياء: **التراث و المعاصرين "كتاب الأمة"**، رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية، ط 2. قطر، 1985،ص 27.

4- عوفي عبد الكريم: "**التراث الجزائري المخطوط بين الأمس و اليوم**"،(مجلة) آفاق الثقافة و التراث،ع (20)، ص(102-103).

العلماء في فروع المعرفة المختلفة و لهذا فالتراث ليس محددا بتاريخ معني إذ قد يموت أحد العلماء،في عصرنا فيصبح ما خلقه تراثا بالنسبة إلينا...),[5] إذ التراث المخطوط يعد دعامة من دعائم التراث البشري عامة،فهو يؤدي دورا خطيرا في نقل العلم و المعرفة و الحضارة،و يعرفنا مدى تمسك الأمة بأصالتها وهو عامل ثورة و بناء إذا ما أحسن استعماله و دراسته في نظرة صائبة و نهج موضوعي ملتزم[6].

و المخطوطات على أنواع تتلخص أهم أنواعها في :

- **المخطوط الأم:**

وهو المخطوط الذي كتب بخط المؤلف وهذا النوع ليس فيه إشكال، وقد كان المؤلفون من العرب يضعون نسخهم الأم بخزانة دار الخلافة، حتى تصبح مراجعتها واستنساخ نظائرها ومقابلتها.

- **المخطوط المنسوب:**

وهو المتولد من المخطوط الأم، والمقابل عليه، فهو بنفس الدرجة من الصحة، وهذا أيضاً مخطوط سليم ليس فيه شك.

- **المخطوط المبهم:**

ونستطيع أن نسميه المقطوع أو المعيب، لأنه لا يرتفع بنسبه إلى المخطوط الأم وصحته غير موثوق بها وبه عيوب قد تنقصه الورقة الأولى التي بها عنوان واسم المؤلف، وقد يكون فيه محو، وتقديم، وتأخير، وتكرار أو قد يكون به فساد في تصوير الحروف وسبيل تصحيحه أن تحلل جميع حروفه بالمقابلة مع المخطوط الأصلي.

- **المخطوط المرحلي:**

نقصد بالمخطوط المرحلي هو الذي يؤلف على مراحل، فيؤلف أول مرة على شكل، وينشر بين الناس ثم يضيف المؤلف أشياء لم تكن في المرحلة الأولى، وقد تكون هناك نسخة ثالثة من المؤلف تزيد على ما في المرحلتين السابقتين، ونضرب على ذلك مثلاً كتاب " وفيات الأعيان لأبن خلكان ".

- **المخطوط المصور:**

المخطوطات المصورة نجدها في كثير من الدراسات المتعلقة بالفنون الإسلامية، ودراسة وهذا النوع من المخطوطات تتطلب معرفة ودراية بأمور التصوير وخبرة فنية لمعرفة ما تحتويه الصور من لمسات فنية وتعبيرات كتابية.

5- عبد التواب رمضان: **مناهج تحقيق التراث بين القدماء و المعاصرين**، مكتبة الخانجي، القاهرة 1986،ص7.

6- الضامن حاتم صالح: **إسهام العراقيين المعاصرين في تحقيق التراث**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق 1990،ص8.

¤ **المخطوطات على شكل مجاميع:**

توجد مخطوطات كثيرة تدخل باسم مجموع أو مجاميع ويكون المجموع مجلدة تضم عددا من المؤلفات الخطية أو الأجزاء الصغيرة أو الرسائل, و يتوكن عادة في عددها ما بين 9-20 مخطوطة[7].

7- براركة شوقي, **المخطوط مصدر علمي أول للباحثين في التراث و التاريخ**, قسنطينة, ص.5

2. الزوايا الصحراوية و دورها في ظهور المخطوطات:

لقد شهدت القرون الماضية ازدهار مدن العلم و حواضره بالصحراء و إذا كانت المصادر التاريخية التي أشارت إلى بدء انتشار الإسلام في المنطقة منذ القرن العاشر أو التاسع لم تتحدث بالتفصيل عن حالة التعليم (الديني), و مع ذلك فإن مقر افتراض و جود حد أدنى من هذا التعليم لضمان بقاء الدين و انتشاره. و قد أشارت مصادر تاريخية إلى وجود معلمين إلى جانب الملوك المحليين و قد أدى هذا التطور الفكري إلى التشجيع على نماء هذه الحواضر و استقطابها للعلماء و طلاب العلم من خلال الحرص على نشر العلم و التفقه في الدين، و لذلك لم تكن الصحراء في معزل عن الحركة العلمية و الثقافية التي شهدتها البلدان العربية و الإسلامية مشرقا و مغربا فكثرت الرحلات العلمية، غدوا و رواحا الأمر الذي شجع على انتقال الكتاب المخطوط و كثرة الاستنساخ كما كان للحجاج دور كبير في نقل المخطوطات و استنساخها عبر السنين الطويلة، فصار لا يخلو بيت من وجود بعض المخطوطات في العلوم الشرعية و اللغوية[8]. أما المراكز العلمية و الثقافية كالزوايا و القصور و الخزانات و المكتبات و الكتاتيب و الأقبية و الرباطات و غيرها فقد كانت مليئة بالكنوز من التراث الفكري المخطوط في شتى حقول المعرفة من فقه و أصول و حديث و تفسير و بلاغة و نحو و صرف و تاريخ و سير و طب و زراعة و تراجم و فلك و كيمياء و غير ذلك مما تفرع عن هذه الأصول و تعد منطقة الصحراء الكبرى من أغنى المناطق بالمخطوطات، إذ نجد في مراكزها العلمية شتى ضروب المعرفة الإنسانية[9].

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: (المنطقة غنية بتراثها العلمي و الديني و غنية بعلمائها و مؤلفيها و بزواياها و نظمها و كذلك لا يزال الاهتمام بها ضعيفا و لم يهتم بها إلا الأجانب...)[10].

و على هذا الأساس يمكننا القول أن هذه المراكز العلمية ساهمت في انتشار المخطوطات من خلال:

- العلاقات الاقتصادية مع مختلف المناطق المجاورة.
- رحلات الحج و العمرة للمسلمين فيها.
- رحلات طلبة العلم و الوفود الخارجية للمتعلمين.
- عمليات التأليف الكبيرة لعلماء المنطقة.
- تطور ظاهرة النسخ خاصة مع اعتبارها مهنة تسمى بالوراقة و القائم عليها كان يسمى وراقا[11].
- تطور صناعة الورق في الحضارة الإسلامية و أثارها على المنطقة[12].

8- عوفي عبد الكريم: **مراكز المخطوطات في إقليم تراث الجزائري**،(مجلة) آفاق الثقافة و التراث،ع(57)،ص (114- 115).

9- ابن خلدون عبد الرحمان: **المقدمة**، تحقيق حجر على حي، منشورات دار مكتبة هلال بيروت1984،ص63.

10- سعد الله أبو القاسم: **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي،بيروت،1998، 3 /182.

11- سعيد خير الله: **رواد السوق الوراقين** ،(مجلة) آفاق الثقافة و التراث،ع 19،ص (21-22).

12- الشكيل علي جمعان: **صناعة الورق في الحضارة الإسلامية** (مجلة) آفاق الثقافة و التراث ،ع"53،ص "118-119" .

3. أهم مراكز المخطوطات بالصحراء الجزائرية:

نظرا للأهمية التي تتميز بها منطقة الصحراء في الجزائر من حيث احتفاظها بكنوز من تراث الأمة يأتي الحديث عن المراكز التي جمعت فيها المخطوطات بين: مراكز رسمية و خاصة.

3-1 المراكز الرسمية:

و نعني بها المكتبات والأرشيفات التي تشرف عليها هيئات و مؤسسات حكومية رسمية و عمومية كالمكتبة العامة التي لها فروع ولائية عبر الوطن و كذا الوطنية و التي تقوم بإنتاج قوائم أرسمية و فهارس لمخطوطاتها وإن كانت لم تستوعب[13] و مثالها :

-المكتبات الجامعية التابعة كالجامعات و المراكز الجامعية كورقلة و الوادي و أدرار و غرداية و غيرها .

- مكتبة جمعية الأبحاث و الدراسات التاريخية بأدرار.
- مكتبات نظارات الشؤون الدينية في الولايات.
- مكتبات المساجد الكبرى سيما مساجد الجنوب الكبير و كذا بعض المدن في الشمال الجزائري.
- مكتبات بعض المراكز الثقافية الإسلامية و دور الثقافة في بعض الولايات عبر الوطن.
- بعض المتاحف كمتاحف المجاهدين التابعة لوزارة المجاهدين.

3-2 المراكز الخاصة (الأهلية –الشعبية) :

إن المخطوطات في المراكز الخاصة قياسا على ما في المراكز العمومية كثيرة و هي تنتشر في التراب الوطني كله،خاصة في الولايات الجنوب كبسكرة –غرداية- أدرار-و غيرها و تحديد عدد المراكز و أماكنه صعب لعوامل عدة أبرزها عدم تعريف أصحابها بها و أهم المراكز التي كتب عنها أو عرفناها بالزيارات الميدانية من خلال الولايات المتواجدة بها الآتي:

A. ولاية أدرار: و أهم ما يوجد بها

- الخزانات الشعبية في منطقة أولف بأدرار و أغلب مخطوطات هذه الخزانات أثرت فيها الأمطار الطوفانية التي نزلت بالمنطقة سنة 1965،كخزانة عائلة عقباوي بزاوية بنعامة،و خزانة عائلة بالشيخ بتقراف و خزانة الشيخ الباي بالمدرسة القرآنية.
- خزانات منطقة تدكلت و من مكتباته:مكتبة أقبلي الزاوية و مكتبة ساحل القديم و الحاج مبارك بن صالح و

13- الدجيلي عبد الكريم: **ملاحظات حول خزائن المخطوطة في تونس و الجزائر و المغرب**،(مجلة) الموارد،مج (3)،ع (4) ص 300.

محمد باي بلعالم و خزانة زاوية بوده و محمد الصديقي التي بها 70 مجلدة مخطوطة.

– خزانات منطقة تنجرين:و فيها 12 مكتبة موزعة على القصور التي بنيت بالمنطقة أشهرها مكتبة كوسام و بني عامر و زاوية سيدي حيدة، و خزانة أولاد عيسى و تنركوك و المطارفة التي أغلب مخطوطاتها في الطب و الفلك.

– فضلا عن إقليم توات الذي المخطوطات المتواجدة به يستحيل حصرها, فعددها كبير جدا, و ما تمتلكه العائلات بخزائنها لا يقارن بما هو في المؤسسات الحكومية.

B. ولاية بسكرة: حيث أن أشهر خزاناتها

– خزانة الزاوية العثمانية (علي بن عمر) في طولقة حيث تعد من أغن الخزانات بالمنطقة و قد كان شيوخها حريصين على الحفاظ عليها و تمكين الباحثين منها و تحتفظ بمخطوطاتها كتبت بالفارسية و التركية.

– خزانة محمد زقادبا بأولاد جلال.

– خزانة الزاوية المختارية بأولاد جلال.

– خزانة مسجد سيدي مبارك بخنقة سيدي ناجي وإن كانت لا تحوي حاليا إلا 3 مخطوطات بعدما نهب العديد منها[14].

– مكتبة الأستاذ أحمد بن السايح و هو عامل بالمركز الثقافي و المخطوطات التي لديه جمعها بصفته الشخصية و هو من محبي التراث و القائمين على جمعه.

– خزانة زاوية سيدي خالد.

C.ولاية وادي سوف: و أشهر خزائنها:

– خزانة زاوية سيدي سلام .

– مكتبة الشيخ عبد المجيد بن حبة بمنطقة المغير.

D. ولاية تندوف: و أشهر ما فيها

– خزانة زاوية محمد المختار بن تفغ بن الأعمش الجكاني و التي بها حوالي 500 مخطوطة و أقدم واحدة يعود نسخها لـ704 هجرية و إن كان هناك من يذكر أن من هذه المخطوطات ما يعود إلى 03 قرون قبل الميلاد لكن يبقى مجرد كلام و هو محل نظر.

E. ولاية غرداية:

تزخر المنطقة عامة بموروثات ثقافية واكبت عمارة المنطقة منذ ما يزيد على 10 قرون و لذلك نجد المخطوطات فيها كثيرة و متنوعة تتوزع على مكتبات تربو على المائة مكتبة حتى أن المستشرق الألماني جوزيف فون هاس في دراسته " أبحاث في بعض المخطوطات الإباضية" سنة 1974 أحصى (100) مكتبة منها (87) مكتبة بوادي ميزاب و قد تعددت وجهات النظر في توزيع هذه الخزانات فجمعية التراث توزعها على النحو التالي :

14- تقرير: الجمعية الناصرية للتنمية الثقافية و الاجتماعية, **الذكرى المئوية الرابعة نشأة خنقة سيدي ناجي**، بسكرة 2002 ،ص80.

– مكتبات عامة: كمكتبة القطب ببني يزقن .
– مكتبات تابعة للعشائر: كمكتبة آل يدر.
– مكتبات تابعة للمساجد: كايروان.
– مكتبات المدارس الحرة: كمكتبة الإصلاح و الحياة بالقرارة و غرداية.
– مكتبات خاصة: كمكتبة الحاج سعيد و أل مطهري بمليكة[15].
و أشهر ما تضمنته غرداية من مكتبات ضخمة هي :
– مكتبة آل يدر التي تحتفظ بـ(594) مخطوطة وفيها (294) مجموع.
– مكتبة عمي سعيد التي تضم (55) مجموعة و(91) عنوان إلا أن وضعيتها متردية من جراء الرطوبة و الأرضة .
– مكتبة البكري بالعطف حيث تضم (2395)مخطوطة و أندر ما تحتويه (جامع الأزكوي) و كتاب (مسائل أبي عبيدة) و غيرها.

F. **ولاية بشار:** و ما يوجد بها من مكتبات و خزائن هي قليلة و منها مالا يعرف و أشهر خزانة بها هي :
– خزانة الزاوية القندسية للقنادسة و التي كانت في 1950 تحتفظ بأكثر من 3050 مخطوطة لكن الاستعمار أحرق منها أحرقه و شرده بعضها لبلاده[16].

و طبعا هذا يعود للأسباب التي أثرت عليها و أبرزها الاستعمار و كذا عدم إبلاغ أصحابها بها و غيرها من الأسباب التي يأتي ذكرها لاحقا.

4. واقع المخطوطات و قيمتها العلمية و التاريخية:

إن الكنوز المتبقية من المخطوطات المشار إليها في المنطقة غنية بمضامينها الفكرية و الفنية و العلمية و قيمتها تكمن في أنها خير شاهد على عظمة أسلافها في أخد العلم و تمثله بأوجهه المتنوعة، و لأنها تمثل عصارة فكر الإنسان العربي و المسلم في المشرق و المغرب و في أنحاء عدة من العالم و بالجملة فهي:

– تعكس جانب تاريخيا من حياة أمتنا العربية و الإسلامية،إذ تمكننا من الوقوع على الكثير من الأحداث و الوقائع و الحقائق التي طواها النسيان، وجهلت حيثياتها و معالمها.

– تعرفنا على أعلام المنطقة و جهودهم الفكرية و الإصلاحية عبر العصور و تضع بين أيدينا الحقائق الواضحة

15– **فهرس مخطوطات مكتبة إروان "دار التلاميذ" في ولاية غرداية** / إعداد جمعية التراث، القرارة 1993–1995.ص.ل.

16– عوفي عبد الحكيم: **مراكز المخطوطات في الجزائر أماكنها و محتوياتها**،مجلة معهد المخطوطات العربية، مج 39،الجزء 1 1995 ،ص 191.

– تقم لنا صورا متنوعة لمجتمعاتنا في النواحي الدينية و الخلقية والاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية و السياسية و الفكرية و غيرها من النواحي الكثيرة.

– تسجل لعلاقات التي كانت تربط الشمال بالجنوب و حركة انتقال الإسلام و اللغة العربية إلى إفريقية السوداء.

– ولا تخفي القيمة الحضارية و الفكرية التي تحملها هذه المخطوطات لأنها تحمل علم الأولين و تعرفنا إياه و مدى التطور الحاصل في مجالاته المتنوعة عبر السنين[17].

كما تكمن أهمية المخطوطات في اعتبارها من المصادر الأساسية الأولية التي ينبغي الرجوع إليها عند دراسة أحد الموضوعات التي تتناولها هذه المخطوطات من العلوم المختلفة أو عند دراسة فترة زمنية معينة تقوم المخطوطات بتغطيتها؛ كما تساهم العديد من المخطوطات في إثراء البحوث التاريخية باعتبارها مرآة العصر الذي نشأت فيه والأدب الذي تنتمي إليه فهي أداة لمعرفة الأمم الماضية وسيرهم، فهي سجل أخلاقهم وخزانة معارفهم ومستودع علومهم وحافظ آدابهم ومعدن أخبارهم[18]

أما حالتها فهي لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في كل أنحاء الجزائر إذ إن العناية بها نادرة ولم يعن بها قبل الجهات الرسمية إلا ما تحتفظ به المكتبة الوطنية الجزائرية و ماعدا ذلك فهي محاولات على الطريق يقوم بها عدد من الباحثين و المهتمين بالتراث ظهرت في العشرية الأخيرة فقط ولا يمكن مجال مقارنتها بالأعمال المنجزة في الأقطار العربية والإسلامية في هذا الجانب لأن إشاعة الثقافة التراثية بين المتعلمين تكاد تكون معدومة فكيف الحال بالعامة من ملاك هذه المخطوطات .

– هذا إضافة لتعرضها للنهب و السلب من فئات عدة.

5. العوامل المؤثرة على حالة المخطوطات و بقائها:

5–1 عامل الاستعمار:

لقد عمل المستعمر الفرنسي على جعل اللغة الفرنسية محل اللغة العربية و على طمس الشخصية العربية الإسلامية طيلة فترة الاحتلال، وما يزال أثره يسري في المجتمع الجزائري إلى يوم الناس هذا، فالمستعمر حرق آلاف المخطوطات و الوثائق كما حصل بخزانة الزاوية القندسية ببشار التي هي غيض من فيض كما سرب آلاف أخرى إلى بلاده للانتفاع بها خدمة لأبنائه و قد فعل ذلك لإلحاق هذه البلاد بفرنسا لغة و دينا و سلوكا و فكرا لقطع الصلة بين الفرد الجزائري و تراثه الخالد "

17– نفس المرجع, ص128

18– رحاب،مختار .**نموذج من إسهامات شكري الآلوسي في مجال الدراسات الانتربولوجية** .مجلة دراسات(لجامعة قسنطينة). عين مليلة:دار الهدى .ع1. 2010 .ص128.

ولقد قام عبد الجبار عبد الرحمان في مقاله " تسريب التراث العربي المخطوط إلى المكتبات الأوربية و الأمريكية" بالحديث عن الأعداد الهائلة للمخطوطات لدى كثير من الدول هي روسيا-بريطانيا – يوغوسلافيا السابقة – فرنسا التي تحوي مكتبتها الوطنية فقط 7500 مخطوط عربي – و إيطالي و ألمانيا التي تتمتع بنتائج النهب الكبير الذي قام به المستشرقون[19], حتى تحاشى بعضهم إعطاء تقديرات لأعداد المخطوطات العربية في العالم كما فعل بروكلمان و سركين و كوركيس عواد و هلموت رويتر و غيرهم[20] و أبرز عمليات الإتلاف و الاستيلاء لفرنسا على المخطوطات بالجزائر أو نقلها إلى مكتباتها:

- نهب الفرنسيين لمكتبة الأمير عبد القادر أثناء حروبهم معهم[21].

- مصادرة الفرنسيين لمكتبة لشيخ الحداد بعد القضاء على ثورته و نقلها إلى المكتبة الوطنية التابعة لهم[22].

- إحراق الجيش الفرنسي و المستوطنون الفرنسيون في الجزائر مكتبة جامعة الجزائر على إثر إعلان استقلال الجزائر و يقال إن المخطوطات نقلت كلها إلى فرنسا قبل ذلك و أن الحريق كان تمويها لعملية نقلها[23].

5-2 عامل الطبيعة:

نعلم جميعا أن بقاء المخطوط مدة طويلة دون حفظ و عناية أمر بعجل باندثاره و يسلمه لعاديات الزمن، فتأتي الأرضة و الرطوبة و الحشرات و الجراثيم عليه فيستحيل بعدة مدة إلى هشيم، فأغلب المخطوطات التي سلمت من أيدي المستعمر كانت محفوظة تحت الأتربة و الكثير منها ما زال مدفونا و لم يعرف سبيله لأن الذين دفنوه ماتوا في عهد الاحتلال،و لعل الكوارث الطبيعية كالحرائق و الفيضانات هي أكثر من أن تحصى فقد ملأت صفحات كثيرة من كتاب فيليب طرازي (خزائن الكتب العربية في الخافقين) في أجزائه الثلاثة.

5-2 العامل البشري:

يعد الإنسان شريكا في بقاء المخطوطات في الجزائر على الصورة السلبية المذكورة، لأن مالكيها يعتقدون أنها ملك لهم كأي عقار موروث لا يحق لأحد أن يقترب منها فهم يجهلون قيمتها الفكرية و الحضارية و لذلك فالكثير ممن يحتفظون بالمخطوطات يصدون من يريد الإطلاع عليها و يفضلون الإبقاء عليها كما هي كأنهم يتبركون بها لاعتقادهم أنها تحمل ريح الأولين و لعل أسوأ ما يتعرض له تراثنا المخطوط في السنين الأخيرة ما يقوم به بعض الغفلة ممن يهربون المخطوطات و يبيعونها بأبخس الأثمان ليشتروا بها ثمنا قليلا أثناء ذهابهم للحج و العمرة، كما

19- عبد الرحمان ،عبد الجبار: **تسريب التراث العربي المخطوط إلى المكتبات الأولية و الأمريكية.**

20 -*Vajda , Georges* ***, répertoire des Catalogues et inventaires de manuscrits arabes*** *,paris 1949. p113.*

21- الدجيلي عبد الكريم: "**ملاحظات حول الخزائن المخطوطة**....."، مرجع سابق ص299 .

22- نفس المرجع السابق ص 230

23- **تقرير عن المخطوطات في الجزائر و أماكن تواجدها** (مجلة) المورد مج 5، ع1 ،ص 42.

يؤثر العامل البشري من حيث الاستعمال فعملية اللمس و تقليب الصفحات المتكرر يساهم في تردي حال أوراق المخطوطات و هنا تبرز قيمة التكنولوجيات الحديثة و عمليات الرقمنة العصرية[24].

5-3 الجهات الرسمية:

إن انصراف الجهات الرسمية في الدولة عن الاهتمام بهذه الكنوز و كأن الأمر لا يعنيهم عل الرغم من وقوف بعض المسئولين على القطاعات الثقافية و التربوية من حين لآخر على مخطوطات في المعارض التي يتفقدونها و كأن المخطوطات في نظرهم تحفة أثرية تحمل بها المتاحف و المكتبات، فلا يختلف حال هؤلاء عن حال المالكين.

وإن هذه العوامل و غيرها ساعدت على تقزيم تراثنا و هو أمر خطير ينبغي أن يتداركه جميع المسؤولين عن هذا التراث الضخم لأن مراكزه على اختلاف أنواعها، مليئة بالكنوز النادرة التي تمثل فنون العلم و المعرفة الإنسانية المختلفة[25].

6. المركز الوطني للمخطوطات و مجهوداته في رصد المخطوطات الجزائرية:

تحتفظ الجزائر بكنوز نادرة من مخطوطات ومطبوعات ذات قيمة علمية وتاريخية وفنية كبيرة يعود تاريخها إلى ألاف السنين ، وللحفاظ على هذا الإرث قامت وزارة الثقافة بإنشاء مركز وطني للمخطوطات بولاية أدرار للحفاظ على ما تبقى من هذا الذخر الثقافي المادي والحيلولة دون اندثاره، من خلال المرسوم التنفيذي رقم 06-10 مؤرخ في 15 ذي الحجة عام 1426 الموافق لـ 15 يناير سنة 2006، و نص هذا المرسوم على تعريف المركز بأنه مؤسسة عمومية ذات طابع إداري يتمتع بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي تحت وصاية الوزير المكلف بالثقافة, و قد جاء في نصوصه ما يحدد مقر المركز بأدرار, ويمكن إحداث ملحقات له في اي مكان آخر من التراب الوطني، عند الحاجة، بموجب قرار مشترك بين الوزير المكلف بالثقافة والوزير المكلف بالمالية.

يتولي المركز في إطار أداء مهامه، ما يأتي :

- حفظ المخطوطات بالطرق العلمية الحديثة.
- إجراء جرد عام للمخطوطات وتصنيفها.
- القيام بفهرسة علمية للمخطوطات.
- تحقيق أهم المخطوطات من طرف الباحثين المختصين.
- تحديد الخريطة الوطنية للمخطوط.

24- عوفي عبد الكريم: " **التراث الجزائري المخطوط**...."،مرجع سابق ص 108-109.

25- المنوخي عابد سليمان: **أنماط التوثيق في المخطوط العربي في القرن التاسع الهجري**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1994 ص 174.

– دراسة مكونات المخطوطات، صناعة الورق وصناعة الحبر، وصناعة أدوات الكتابة، وصناعة الكتاب.

– إدماج التراث الفكري في الإطار الاقتصادي والسياحي.

– إبراز القدرات الفكرية والإبداعات الفنية المحلية من خلال المخطوط : فن الخط وعلم النقوش والتنميق والتجليد.

– توفير أحسن وأنسب الأوعية لحفظ المخطوط.

– تنمية الوعي بأهمية المخطوط والحفاظ عليه كهوية حضارية وثقافية للفرد والمجتمع.

– اقتناء جميع الوسائل الضرورية لنشاطه.

– إبرام جميع الاتفاقيات والعقود مع الهيئات الوطنية والدولية.

– تحديد واختيار الرسالة الإعلامية المناسبة للتعريف بالقيمة العلمية والفنية والتراثية للمخطوطات.[26]

و قد قام المركز في ظرف سنوات قليلة من إنشائه على إحصاء أزيد من 15 ألف مخطوط تشمل مختلف المواضيع الاجتماعية و الثقافية و العلمية و الدينية بولاية أدرار لوحدها, و يقوم المركز الوطني للمخطوطات حاليا على إعداد دليل وطني للمخطوطات وذلك في إطار تثمين و حماية هذا النوع من التراث و وضعه في خدمة الباحثين والهيئات الوطنية و الدولية المعنية بالدراسات حول التراث التاريخي. كما أن الأخصائيين يعكفون حاليا على إنجاز هذا الدليل الوطني حيث سيتم في المستقبل القريب رقمنة أزيد من 15 ألف مخطوطة تم إحصاؤها على مستوى ولاية أدرار و أين يوجد أكبر عدد من المكتبات الخاصة التي تتوفر على هذه المخطوطات. وستصدر المخطوطات –حسب المتحدثة– على شكل أقراص وذلك لضمان نشرها و توزيعها على المختصين في مجال التراث الفكري, وهذه العمليات المسجلة في إطار حماية هذا الجزء الهام من التراث و التاريخ الوطني تهدف لإبراز أهمية هذه الوثائق القديمة التي طالما أهملت و دمر جزء منها جراء تقلبات الطبيعة وسرق بعضها لأغراض شخصية مضيفة أن هناك أيضا العديد من المخطوطات سلب بالقوة خلال الفترة الاستعمارية من أصحابها من طرف الإدارة الفرنسية. وينوي المركز الوطني للمخطوطات بأدرار القيام بعملية إحصاء للمكتبات الخاصة "الخزائن الشعبية" عبر كامل التراب الوطني بغية فهرسة هذه المخطوطات. ويرمي إلى إبراز مختلف الأعمال القديمة خاصة منها للعلماء و الباحثين خلال مختلف المراحل التاريخية والحضارة العربية الإسلامية التي عرفتها البلاد. و هناك مخطوطات هي موجودة لدى هيئات مثل الزوايا و المساجد و غيرها من مؤسسات التعليم التقليدي الناشطة عبر مختلف المناطق الجنوبية و الشمالية للوطن. وقد صنف الباحثون خلال اللقاء الوطني حول المخطوطات و الأعمال الصوفية في التراث الوطني المنظم مؤخرا ببشار المخطوطات إلى نوعين اثنين وهما المخطوطات الموضحة بالصور و التي يتم حفظها بالمكتبات و المخابر الجامعية و تلك الموجودة بالمكتبات الخاصة[27].

26- الجريدة الرسمية, **مرسوم تنفيذي رقم 06–10 مؤرخ في 15 ذي الحجة عام 1426 الموافق 15 يناير سنة 2006، يتضمن إنشاء المركز الوطني للمخطوطات.**

27- **دليل وطني للمخطوطات في طور الإعداد لتثمين تراث أدرار,** http://www.djazairess.com

و على الرغم من ما يقوم على إنجازه المركز من أعمال إلا أن هناك عددا معتبرا من المخطوطات المتواجدة في مراكز حفظ رسمية, و ليست في المركز كما بالمكتبة الوطنية و الأرشيفات الولائية للكثير من الولايات, خاصة العواصم الثلاث لنواحي الجزائر(قسنطينة. الجزائر. وهران), و كذا ما يوجد لدى المتاحف الوطنية كالمتحف الوطني للجيش و متحف المجاهد و نحوها[28], و لا نلمس عزما على الأقل من المركز في جمع هذا الشتات الذي من المكن جمعه من دون أي تأخير كالذي قد يحدث في المحفوظ لدى أصحاب الخزائن الشعبية.

مقترحات الدراسة: لعل من الجدير التنويه لإمكانية أن نقوم بـ:

1- العمل على تثمين المخطوطات و قيمتها من خلال :

* السعي إلى تأسيس أقسام دراسية في كليات العلوم الإنسانية و الاجتماعية تكون مهمتها إعداد محققين متميزين محملين بالمعرفة العلمية و المهارة العلمية في شؤون تحقيق النصوص المخطوطة و قد سبق لجامعة بغداد القيام بهذه المبادرة و لم تستمر طويلا, و أغلق القسم المعني و اليوم هناك مبادرة بالجزائر بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في قسنطينة, بإنشاء قسم التوثيق و المخطوطات التابع لقسم التاريخ.

* إقامة مقاييس دراسية ضمن التخصصات العلمية كالتاريخ و الآثار و علم الاجتماع و المكتبات و غيرها من التخصصات التي لها علاقة بالمخطوطات و العناية بها .

* سعي الجامعات إلى توجيه خريجيها في مختلف المراحل الدراسية و الدراسات العليا إلى القيام بتحقيق المخطوطات من خلال منح امتيازات لأمثال هذه البحوث و قيام الجامعات بتوفيرها لنسخ من المخطوطات الغير مدروسة و محققة لتتم دراستها و تحقيقها.

* إنشاء مخابر بحثية في ميدان المخطوطات و لقد قامت جامعة وهران بإنشاء مخبر للمخطوطات, و المأمل أكثر من هذا.

2- ضرورة العناية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة علمية دقيقة و مفصلة حتى لا تنسب الكتب إلى غير مؤلفيها و حتى لا تختلط ببعضها و ألا تقف عملية الفهرسة على جانب الإشاراتي بذكر العنوان و المؤلف و تاريخ النسخ...

3- الإسراع في القيام بمسح شامل لجل المراكز العامة و الخاصة و ذلك عن طريق بعثها و التعريف بها و الأفضل لو تشرف على هذه الأعمال الجامعات و مخابر البحث العلمي و تنفق عليه أموال تليق بالمهمة و القيمة الحقيقة للمخطوطات و لم لشرائها.

28- **كنوز الجزائر من المخطوطات في مراكز حفظ رسمية متفرقة**, http://tourath.halamuntada.com

4- دعوة مالكي المخطوطات لتزويد الجامعات و مراكز البحث العلمي بما يحتفظون به من مخطوطات بصور منها لأجل حفظها من الضياع و الانتفاع بها في الأبحاث العلمية.

5- ضرورة دعم المركز وطني للمخطوطات كمعلم يهتم بدعم التراث فهو كمكتبة وطنية للمخطوطات الجزائرية, و هذا من خلال جعله المؤسسة الوطنية الوحيدة التي تحفظ فيها المخطوطات.

6- إنشاء مشاريع و وحدات البحث على مستوى المعاهد و الجامعات و المراكز البحث العلمي يعنى فيها بجمع التراث و التعريف به و صيانته و حفظه و فهرسته و إتاحته للتحقيق و الدراسة و النشر.

7- محاولة الاستفادة من الخدمات التكنولوجية الحديثة باستعمال الحاسوب و بنوك و قواعد المعلومات و الارتباط بالشبكة العنكبوتية (الانترنيت) و غير ذلك مما له صلة بالتطور العلمي في مجال خدمة التراث لأن هذا الأمر يوفر كثيرا من الجهد و يختصر المسافات للباحثين في إنجاز الأبحاث العلمية التي تخدم تراثنا.

- **خاتمة:**

إننا نعتقد أن التعجيل بتطبيق هذه المقترحات عمليا في الميدان مم يساعد على إبراز الدور الحضاري و الثقافي للمجتمع الجزائري و الصحراوي خصوصا و لم لا في إطار الجهوية الإيجابية لما تتميز به الصحراء من تراثها الكبير, بل هذا يمكننا من إنقاذ آلاف المخطوطات التي طواها النسيان و أتت عليها قرون طويلة و هي تئن تحت الأتربة و عاديات الزمن و إذا تحقق هذا المبتغى نكون قد أقمنا جسور الاتصال بين الحاضر و الماضي و هيأنا للأجيال سبل الانتفاع بالإسهامات التي قدمها علماءهم في شتى ضروب المعرفة و العلم.